المناهل

8

قصة

لوحة لم تتم ..

عبد الكريم غدب

المـــــــراة .

عنوان اللوحة التي كانت سبيلها الى قلبـــه ،

تجـــول فى المعرض الصغير كفنان هاو اعتاد ان يـــزور المعارض الفنية بعين لاقطة ، وعقل متفتح ، واحساس مرهف ، واستعداد لتقبل العطاء . يزور المعرض كما يزور دنيا حافلة بالعطاء الانسانى فى خطوط متعارضة طافحة بالغموض ، فى وجه انسان متفتح للحياة ، او بـــــرم بقدره ، فى شلالات نهر هادر ، او اغصان متعانقة ، فى بسمة طفلـــة ، او نظرة قطة ، فى اللون والضوء ، فى الفـــراغ اللانهائى ، فى الوجود المغمور بالضوضاء .

توقـــف عند اللوحـــة :

ـــ شجاعة ان ترسم فنانة صورة المراة .

تطلع يكتشف ما وراء الرسم : ذكاء ، عزيمة ، اصرار ، تحدى ، لهفة ، جاذبية . .

ويجانب اللوحة ليكتشف : حنان ، نداء ، عطـــاء .

وقف طويلا كما لم يقف عند اى من اللوحات الاخرى ومـــا يـــزال يكـــتـــشـــف .

ـــ ترى هل رسمت الفنانة ملامحها ، ام لعل خيالها التقط ملامح من هذه وتلك ليرسم منها لوحة كتبت عنوانها : المراة ... ؟

تلفت فى جوانب المعرض الهادىء يبحث بين الوجوه القليلة عن الفنانة التي تعرض لأول مرة . لم يكن يعرفها ، لم يسمع باسمها من قبل . بحث فى عيون الفتيات الثلاث اللاتى كن يتجولن فى المعرض ، فى وجوههن وتدودهن ، مشيتهن ، حركاتهن ، كلهن زائرات رمى بهـــن الفضول الفنى لزيارة معرض تنظمه سيدة .

سأل عنها ، عن الفنانة صاحبة المعـــرض ، وتلقى الجـــواب من شاب اتضح انه مجرد راع ، دليل ، يحلو له ان يقوم بهذه المهمة كلما عرض فنان او فنانة .

ـــ هي فى الكليـــة وستعود ...

فى شـــوارع الربـــاط ، وقد اكتظـــت بالوافـــدين من الادارات والمكاتب ، كان يسير على غير هدى . يذكر انه زار عدة معارض فنية فى نفس المكان البارد الهادىء الذى يوحـــى بالمـــاضى ويحـــدث عن التاريخ . خرج من بعض هذه المعارض وليس معه منها غير متعـــة آنيـــة سرعان ما تغرق فى زحام الناس والافكار وهموم الحياة . وخرج من بعضها وفى نفسه شيء تحول الى فكرة فنية او انطباع عن الرسام . وخرج من بعضها بالقطة تحولت فى قلمه الى قصة ... مايـــزال يذكـــر القصص التى استوحاها من لوحات يحتفظ بملامحهـــا فى زاويـــة من ذاكرته . ما يزال يعتبر قصصه تلك نتاجا شرعيا لريشة فنانيـــن ربما لا يذكر حتى اسماءهم . ومن يدرى ؟ لعل اللوحات التي استوحى منها كانت هي الاخرى نتاجا شرعيا لقصص رسمتها اقلام فنانين آخرين . ولكنه خرج من المعرض فى يومه ذاك وهو يفكـــر فى اللوحـــة ، الرسم

الذى يحمل عنوان : المراة . لم تكن اللوحة موحية بمتعة آنية ، ولا الحت عليه ان يرسم قصتها . هي ، هي التى خلقت من الالوان والضياء صورة ... « المراة » هي التى كتبت قصتها ، ليست لقطة عابرة موحية ، انها قصة كاملة . .

ومانزال « المراة » تعيش فى احساسه ، يقظة تحدثه ، تقدم نفسها اليه تشعره بالحرج فى تحديها واصرارها وعزيمتها ولهفتها وجاذبيتها ، تشعره بالتجاوب فى حنانها وندائها وعطائها . . عاد الى المعرض فى يوم غير يومه مدفوعا بالحاح الرسم الذى رهن عنده فكره وقلبه . ومع الفنانة الرسامة كان يحاول ان يكتشف سر « المراة » فى عينيها الذكيتين وقدها الاهيف وحديثها الجذاب واقبالها اللاهف وصفاء نظرتها وحنان صوتها ، وقلبها الكبير المتفتح .

لم يستطيع ان يؤكد لنفسه انه كان مدفوعا باللوحة الفنية التي قدمت نفسها اليه فى المعرض الهادىء حينما عرض عليها الزواج ، ولم يستطع ان يتاكد انها كانت مدفوعة بالصورة التي قدمتها عنه المجموعة القصصية التي اهداها اليها فى لقائهما الثانى ، حينما قبلت عرضه بالزواج ، ولكن الذى يعرفه انه تزوج الفنانة التي انجبت اللوحة « المراة » . والذى تعرفه انها تزوجت الفنان الذى انتج القصة : « انت لى . . . »

شقة بسيطة كانت عشهما الهادىء الدافىء ، لم يكن يرتاده صخب زوجين شابين يجربان الحياة معا لاول مرة . كان فيه من عالم الناس الحب والتقدير والتجاوب ، وكان فيه من عالم العقل تفكير مشترك فى شؤون العلم والفن والادب والسياسة . يعيشان لمتعتهما الفنية والفكرية اكثر مما يعيشان لمتع الحياة التي اعتاد الآخرون ان يعيشوا لها . تجتذبهما واجهة مكتبة او قاعة موسيقى او صالة محاضرة او مسرح ، اكثر مما تجتذبهما واجهة ملابس او جماليات او قاعة سينما . يتحدثان فى هدوء وبصوت منخفض يبلغ احيانا درجة الهمس . الكلمات عندها لا تؤدى بحروفها ، ولكنها ايضا تؤدى بجرسها : مهموسة او

صاخبة ، ذلك بعض دلالاتها . عرفا الحب وعرفا السعادة وعرفا التجاوب ، ولكنهما ايضا عرفا الخلاف ، الجدل ، الخصومة . كانا يتفقان فى الفكر ويختلفان احيانا فى الشكل . كان يكتب فى وضوح ويعبر ببساطة وقد تكون الفكرة اعمق من وضوحه وبساطته ، ولكنه كان يؤمن بأن من مهمة الكاتب أن يفتح المنغلق . وكانت ترسم بغموض وتزاوج بين الالوان المتنافرة ، تترك ريشتها احيانا تعربد على سطح اللوحة وهي لا تدرى الى اى قدر تسوقها . وتنطلق ضاحكة مستبشرة :

ـ نجحت الريشة . أن تعبر عما كانت أحس به ...

كان يختار وقت الاطمئنان النفسى والراحة البدنية والفراغ من متاعب الحياة ليكتب قصة . كثيرا ما كان يكتب السطر الاول منها ثم يطوى الورقة أياما او اسابيع يعمق فيها الفكرة ، ويبحث فيها عن ذاته الهادئة المطمئنة لتعبر فى جلاء عن الفكرة التى تملكته .

كانت تختار ساعة القلق النفسى ، الغضب ، الاضطراب او حتى ساعة التعب الجسمى لتختلى الى لوحتها وريشتها . احيانا لم تكن تختلى . تطلق عنان المسجلة الصغيرة على موسيقى صاخبة ، ثائرة ، هائجة منفعلة وريشتها بين اصبعيها تتماوج مع الالوان فى بطء حيوى .

الافكار مفككة ، النوازع متباينة ، صراع اليأس والامل يرجها رجا . تلك لحظة اندفاعها نحو الزاوية الصغيرة التي اختارتها كمرسم لها فى منزلهما الصغير الثاوى فى الحي المتواضع الهادىء .

ويقف أمام اللوحة فاغرا فاه اعجابا . ولكنه يحاول ان يفهم

ـ ليس المهم أن تفهم . لست مدرسة فى قسم ابتدائى ..

ـ ولكنى اريد ان اعرف : ماذا تقول اللوحة .
ـ انها تقول ما اردت ان تقوله

ـ مـا هـو ... ؟

وتهز كتفيها فى نشوة . ظفرت بالسؤال الذى كانت تبحث عنه : ما هو ؟ سر الحياة الغامض الذى نقوله لأنفسنا فى وحدتنا ، نهمس به لفكرنا ، لمشاعرنا . ولكننا لا نطيق الاعتراف . الفن وحده يستطيع ان يعبر عن هذا السر دون نفاق . فى غموضه وتداخل ألوانه وتقاطع خطوطه يعرب عما وراء الكلمات .

ويستسلم ، فهو صراع أبدى لا يطمع فى ان ينتصر فيه ، فيعبر عن استسلامه بقبلة حب واعجاب يطبعها بين عينيها الطافحتين بالنصر . وهو يهتف :

ـ آه لو كنت أنا غموضا . . .

وتأخذ اللوحة بمجامع قلبه . يسترق اللحظات الهادئة يجلس أمامها ، يسير فى مواجهتها ، يقف خاشعا كما لو كان يتعبد فى محراب . تقول له اللوحة الكثير . ويبتسم وهو يودعها . يعود اليها بعد أيام ليجلس ، ليسير ، ليقف ، وتقول له الكثير مما لم تتحدث به فى المقابلة الاولى . ويبتسم وهو يودعها .

ـ أسرار المرأة . غامضة . أنت فى حاجة الى وقت لتفصح لك . لا تقول كل شيء . أنت دائما فى حاجة اليها ، سرها

هكذا حدث نفسه وهو يلقى النظرة الاخيرة فى احدى مقابلاته مع احدى لوحاتها .

وتستمع اليه بترا تصته ، وقد وضع لمساتها الاخيرة ، بأذنيها وعقلها معا : المنطق ، التحليل ، الفكرة ، العقدة ، الوصف ، الكلمات مختارة لامعة مشعة ، الواقع تكاد تلمسه بيديك ، الجو تعيشه بكل حواسك ، الاثارة ، الفرحة ، الحزن ، الغضب ، الامل ، تفاهة ، سمو ، نفوس مريضة ، نفوس سليمة .

وتقف أمام القصة فاغرة فاها اعجابا . وتسأل :

ـ . . . وماذا تريد ان تقول ؟

ـ قالت القصة كل ما أريد أن أقول ...

وتتطلع الى وجهه الصبوح فى وضوحه فتطبع على خده قبلة تهنئة ، وهي تهتف :

ـ آه لو كنت أقل وضوحا ...

وتسترق لحظات فائرة منفعلة فتقرأ القصة من جديد ، بعينيها هذه المرة لا بأذنيها ، تعيد النظر فى الكلمات ، فى المقاطع ، فى اللمسات ، تجرد الشخصية من كل مباذلها لتتعرف عليها فى كل محاسنها . تجردها من كل محاسنها لتتعرف عليها فى كل مباذلها . تجردها من محاسنها ومباذلها لتراها عارية قبل أن يمنحها الكاتب طعم الحياة . وتعجب لهذا الوضوح الذى يخفى الكثير : ما وراء الكلمات ، الصورة ، التحليل ، التجاوب مع العواطف الانسانية .

من ذاته وقلبه وفكره منح هذه الشخصية . خلق وابداع . انه هو بكل ممكناته صاغ انسان هذه القصة .

كذلك تحدثت الى نفسها وهي تطوى آخر صفحة من الكراسة التي عاشت معها لحظات أرادت منها أن تكون بعيدة عن تأثير الصوت التي ألفت أن يقنعها دون أن تفكر طويلا فيما وراء الصوت .

وتسير بهما الحياة هادئة ناعمة يتوزعها العمل ، ويجمع بينهما المرسم والمكتب ، كل منهما يعيش فى عالم منفصل ، هي ترسم بالريشة والالوان ، هو يكتب بالقلم والحبر . والشقة الصغيرة تحيل عالميهما الى عالم واحد يلتقى فيه الرسم بالكتابة ، الغموض بالوضوح الرمز بالايحاء والايماء ، الاشارة العابرة بالتحليل .

ـ زهـــرة ... ؟

تطلعت اليه ـ وهما على مائدة عشاء ـ بعينين متسائلتين . وكان من عادتها الا تتحدث اليه أو تستمع اليه الا وعيناها سابحتان

فى وجهه ، كأنها تسمع بهما وكأن وجهه الذى يتحدث . وجهه هـــذه المرة كان يتحدث فى شيء من الانفعال · يريد أن يقول ، واكنه يبـدو غامضا . التقطت شخصيته كما التقـط شخصيتها فبـدت واضحة ، وهي تسمع بعينيها ، وكأنها تشجعه على ان يخرج من عالم الغموض والاشارة والرمز . لم يسعه الا أن يكمل جملته .

ـــ · · · الا تحسين اننا فريـدان · · · ؟

وطاف بفكرها عالـم العرسم ، يحفـل بالشخصيـات والافكـار الوليدة ، عالـم المكتب يحفل بالاصدقـاء والصديقات ، وبالنفـوس البريئة والشريرة جميعهم من ابداعهما وخلقهما · عـاد بهـا التفكـير الى ملاحظات عنه ظلت فى منطقة الاستفهام : فرحة الاطفال تغمره كلما صادف فى طريقه طفلا أو طفلة تجرى نحو احضان امها ، تناغى طفلات او اطفالا فى مثل سنها . من مشهد كهذا اعترضه فى حديقة عمومية ، ابدع قصة مازالت تحظى لديه بالاعتزاز .

فى ملتقى نظراتهما حومت كل هذه الارتسامات . كانت تهـم بأن تجيـــب :

ـــ لسنا فريدين · عالمنا طافح بالابناء والبنات · ·

تراجعت عن الكلمة حسبتها موجعة وهي تقدر ما دفعه الى هذا السؤال الحزين . استجمعت كل شجاعتهـا ، اودعت كل انوثتهـا فى عينين طافحتين بالبشر . هتف فمها الدقيق :

ـــ تـدم الطلـب · · ·

عادت بها الذاكرة فى الحين الى ما كانا يترآن فى الليلة الماضية فى الف ليلة وليلة ، اكملت الجملة ، وضحكة عارمة ترن بين شفتيها :

ـــ · · · جاريتك المطيعة رهن اشارة مولاى · · ·

احتضنها فى قبلة عارمة . فقد نضت عنه طابع حزن خيم على حديثه وهو يدلى اليها بمشاعره . كان يشعر بالحزن والأسى حينما يزوران الاصدقاء فتطفح القاعة بمناغاة الاطفال ولعبهم وحنى مضايقاتهم . وكان يسعى الى هذه الزيارات وقلبه طافح بالحب لهذا الطفل وتلك الطفلة . يحتضن هذا ويقبل تلك حتى ربطت بينه وبين الاطفال صداقات .

— بابا سليم
— عمى سليم

هكذا كان الاطفال يلهجون بذكره وهم يتحدثون عنه ، وهم يستقبلونه على الابواب ، وهم يقفون دون الباب يمنعونه من أن يخرج اذا ما هم الرحيل .

تسربت شخصيات من عالم الطفولة الى قصصه . من حيث يدرى أو لا يدرى . كان يسعى الى أصدقائه ليتزود بملامح من عالم الاطفال ، فقد كانت تنقصه التجربة حينما تعترض طريقه وهو يرسم شخصية طفل او طفلة فى قصة من قصصه . شعر ، وزهرة تنعم بالقبول ، انه حقق نصف الهدف ، فسيكون له أطفال يملأون فراغه ، يشعرونه بالبهجة ينتزعونه من عالم المكتب الى عالم الحياة . كان يضيق أحيانا بمكتبه وزهرة فى مرسمها ، يلجأ الى الكتاب والمجلة والصحيفة يستمد منها جميعا بعض الوحي . يخرج الى الشارع فيتطلع فى وجوه الناس ويخبر أحاسيسهم من أصواتهم . يعود الى ذكريات الماضى فيجتذب الافكار والمشاعر والشخصيات . يلجأ الى الخيال فيجده أحيانا أكثر ضحالة من الواقع . كم يكون سعيدا لو استطاع أن يلمس وجه طفلة له بكيفية ، أن يحتضن صباها اللدن بين ذراعيه . أن يقبل وجنتيها الناعمتين بفمه . كم يكون سعيدا لو استطاع أن يكون ابا .

وكان بين الزوجين السعيدين تفاهم :

أحست زهرة أنها أصبحت أما . اقتحمت العالم الذى كانت تخشاه دون شعور . كل أحلامها اتجهت نحو الامومة . تملكتها صفات

الأم : الحنان ، الرقة ، الاشفاق ، التطلع ، التفكير فى الآخر ، تغيرت نظرتها الى سليم ، كانت تعتبره طفلا كبيرا . اصبحت الآن تعتبره استاذا ملهما ، قادرا على العطاء . شعرت بالحاجة اليه كما لم تشعر من قبل ، حياتها اصبحت بين يديه . لم يعد يثيرها — كما كان يفعل أحيانا — وهو يلح . . . لاحظت ان استجابتها اصبحت تلقائية ، عالمها حفل بالاطفال . تتوقف عند واجهة اية مكتبة تبحث عن كتاب عن الطفولة . حتى اعلانات التلفزيون عن غذاء الاطفال تشدها كطفلة كبيرة تحن الى أيامها القريبة الماضية وهي تلعب او تجرى او تأكل . . .

ونظرت اليه بعينين ناعمتين ذابلتين فيهما سقم ، بهما احساس بالخوف . كانت تهم أن تنطق . تراجعت فان رهبة ما تتملكها ، لاول مرة تحس بشيء ، تريد أن تفضى بشيء ليس خجلا ما تحس به . ولكنه . . لا تدرى ما هو ...

تغلبت على مشاعرها . طوت الصفحة لتعود الى الحديث العادى عن الحياة والناس والكتب والرسم .

عادت اليها الرغبة فى الالتجاء . ما تحس به لا تحتمل أن تجتره فى وحدتها . بنفس النظرة الذابلة والعينين بهما سقم همست شفتاها :

— سليم . . .

توقفت قليلا . لعل الكلمات نفسها لم تطاوعها . ابتسمت بعينيها . طفرت منهما سعادة اتمت جملتها الهامسة :

— . . . ستصبح ابا

جمدت أعصابه لا يدرى لمه . . . تسمرت عيناه فى وجهها الطافح بالسعادة . كان فى حاجة الى قليل من الوقت ليصدق . وانطلق اليها يغمر وجهها بالقبل . ولم يتكلم .

مضت الايام بطيئة ثقيلة . زهرة عزفت عن دنياه . شيء ما كان يدفعها أن تتحاشاه تغيرت ملامحها ، ولكنها فى شحوب وجهها كانت تضيء مستقبل حياته ، فى قلقها كانت تشعره بالعطاء ، شيء ما يتحرك

فى هذه النفس لتصبح نفسين ، جسدين . تجربة . آه لو تمكن من ان يكتبها ... آه لو تمكنت من ان ترسمها ، ، ،

وكـــان المرسم ملجاهـــا .

لم يكن يسمح لنفسه ان يقتحم عليها دنياها قبل ان تأذن . وقـــد عودته ان يكون اول من يرى لوحاتها بعد ان تطمئن اليهـــا . عودته ان تتحدث عن مشاريعها ، تناقش افكارها . انطوت على نفسها ، كلماتها اليه اصبحت محدودة .

ـــ التجربة الاولى . لعلها قاسية

كذلك حدث نفسه وهو يناقش الازمة التي تجتازها زهرة .

كانت الكتب ملجاه ، يستفهم عن تجارب الحمل ، عن الامومة ، الطفولـــة .

جالس فى مكتبه الهادىء . زهـــرة لم تكن فى البيت . لا ليكتب ، ولكن ليضع تخطيطا للمستقبل . الانس سيحل بالمنزل الصغير . سيكون طفلا ، لا طفلة ، تناغى ، تحبو ، تصيح : بابـــا ، ، ، ماما ، ، ، تبكى ، تضحك ، تطلب ، تتعلق ، تجرى ، تلعب ، تكسر ، تعـــــلأ البيت دفء ، تصل ما بين المكتب والمرسم . ترى اية لوحة سترسمها زهرة لياسمين ؟ ليكن اسمها ياسمين . زهرة تحب زهـــر الياسمين . ترتاح نفسها لرائحته . اية قصة سيكتبها عن ياسمين ؟ والازمة التي تمر بها زهرة ؟ الاشهر الثلاثة الاولى ... هكذا تقول الكتب . هكـــذا توقع الطبيب . وسيعود البشر الى وجه زهرة ، وستألف العشرة الطيبة مع ياسمين فى اهاب واحد ، وستستعد نفسها لاستقبال عالمها الجديد ، عالم الامومة وسيمنح نصف مـــا يتمتع بـــه من حبهـــا لياسمين ... وستمنح زهرة نصف ما تتمتع به من حبه لياسمين .

ضحك من نفسه . اخذ يوزع الحب فى قسمة عادلة : نصف حبي ، نصف حبها ... ياسمين ستتمتع بالحب كلـــه . مستعد ان يضحى . زهرة مستعدة ان تضحى .

وقفز على رنين حاد من جرس الباب استله من احلامه .

ـ حادثة سيارة خطيرة على طريق الشاطىء . وزهرة فى المستشفى .

لم تعد زهرة الى البيت . ولا ياسمين .

وحيدا فى البيت البارد كان يلقاها فى كل ركن ، تجلس اليه ، تتحدث ، تضحك عيناها ، تجادل ، تناقش ، تقرأ له وهو يسمع ، بوجهها البشر تطارده فى خلوته . فى كل مكان كان يراها ، يسمع صوتها ، يحس بحركتها ، يتسمع الى انفاسها فى سريره ، نداؤها يوقظه من غفوته .

لم تنته زهرة من حياته .

والمرسم . محرابها المقدس لم يستطع ان يقتحمه ، كان يشعر بأنه سيجدها هناك . لا لن يجدها هناك ، كلاهما كان يرج كيانه ، المرسم بدون زهرة سيكون خرابا . كل عبقريتها تحولت الى تراب ...

وظل المرسم ثاويا مهجورا بضعة اشهر .

ـ فى المرسم كل اسرارها . من وراء القبر ستحدثك ، افتحه تسمع صوتها ، تتجلى لك بروحها ، خالدة زهرة فى مرسمها ، ، ،

كذلك تحدث له عقله فى غفلة عن عاطفته .

وفتح باب المرسم متهيبا .

زهرة كانت هناك .

على المحمل كانت اللوحة الكبيرة ، مانزال الوانها طرية ، الريشة ومجمع الالوان تأويان تحت قدميها ، المرأة بقدها الاهيف بلونها الشاحب ، القلق ممزوجا بالسعادة ينبع من عينيها الذكيتين ، بعزيمتها ، باصرارها ، بتحديها ، بلهفتها بجاذبيتها ، بحنانها ، بندائها ، بعطائها ، فى ثيابها البيضاء الشفافة ، السابحة فى الهواء ، فى الفراغ اللانهائى كما لو كانت ملاكا تقف بين الارض والسماء ، يداها ممتدتان الى أعلى فى رجاء ، عيناها

متطلعتان الى السماء فى امل ، من بين السحب ينفرج ضوء باهت يحيط بوليد لم تكتمل بعد انسانيته ، تجاوب كامل بين نظرة الرجاء والامل ، والنور الذى يحيط بالوليد المرتقب ...

ودمعة حرى تجلل الوجه الذى كان صبوحا قبل أن يفقد زهرة ،

اخذت اللوحة مكانها فى غرفته

ومايزال يتطلع اليها كل صباح كما لو كان ينتظر ان تتم زهرة لوحتها .

الرباط

عبد الكريم غلاب